# أدب الإيمان

باستثناء بعض التجارب الأدبية، وبعض الدراسات النقدية فإنَّ ساحة العالم الاسلامي والعربي خاصة مازالت تفتقر - في هذا الزمان - الى الأعمال التي يمكن تبلورها في مدرسة أدبية رصينة، تتبنى الإيمان، وتنطلق منه، وترسي قواعدها على أصوله وحقائقه، ويكون لها روّاد مرموقون يمثلونها في نتاجاتهم الأدبية. ولا جدال في أن الفكر الاسلامي كان قد شهد خلال هذا القرن الأخير المزيد من التطور والتجديد. إلاّ أن «أدب الأيمان» عجز عن اللحاق به ومواكبته، فتأخر عنه بمسافة طويلة، الأمر الذي قلّما يحدث في مذاهب الفكر الأخرى، فهي ما تكاد تظهر الى الوجود حتى تنبثق عنها مدارسها الأدبية التي تدعمها وتدعو اليها، وتبشر بها.

ومهما قيل في اسباب ذلك، إلاّ أن السبب الرئيس هو غياب الروح اللّماح، وانطماره تحت ركامات قرون الانحطاط والتخلف، وعجز الحاسة الوجدانية عن ادراك جمالية هذا الفكر واستذواقه والتأثر به، ثم التعبير عنه بشفافية أدبية تهز الوجدان وتحرك المشاعر.

وقلةٌ اولئك الرواد الذين يتوحد فيهم العقل والوجدان، فيفكرون بقلوبهم، ويعقلون بأرواحهم، ومن هؤلاء القليلين استاذنا «النورسي» حيث تتوحد فيه منابع الفكر ومنابع الوجدان، فتلتقي في قرارة نفسه المنابع جميعاً مكونةً رافداً عظيماً يستقى منه الفكر مرة، والوجدان مرةً اخرى،

فوجدانياته تواكب أفكاره، وروحه يلازم عقله، فلا ينفكان او يفترقان، وهو يرسي بكتاباته قواعد مدرسة ادبية ايمانية يمكن اعتمادها من قبل أدباء الايمان فيما ينشؤون من نثر أوينظمون من شعر. وهو يفهم النفس الانسانية، ويدرك أفكار القلب البشري لأنه وقف على مشارفه طويلاً. ويرى أن حنين هذا القلب الى الخلود والبقاء قد يفجر ادباً من اروع ما عرفته البشرية من آداب الشوق والحنين والأسى الملتاع، وفي قطعته النثرية: «لا أحب الآفلين»(١) منحىً من هذه المناحي الذي يمكن النسج على منواله وطريقته.

وكما يتوحد الفكر والوجدان عند «النورسي» تتوحد في ذهنه ووجدانه المعارف الإلهية. فالمعارف الكونية عنده هي معارف إلهية في الحقيقة والواقع، تكشف لنا بالاستبطان والاستقراء أسرار الخلق وعظمة التكوين والايجاد.

كما أنه يرى الكون - بجزئياته وكلياته - وحدةً واحدةً، يحكمها قانون الهي واحد؛ هو قانون التعاون والتساند، لا قانون الصراع والجدال كما يذهب الى ذلك بعض فلاسفة هذا الزمان، لذا فالكون صديق حبيب للانسان، يبادله المحبة والودّ، فلا يحس بالغربة فيه، أو يجد ما يبرر الاستيحاش منه، فالربط بين قلب الانسان وقلب الكون هو مايسعى اليه «النورسي» في مدرسته الأدبية.

وصرامة النواميس الكونية وثباتها لا يعني أن خرقها وكسر قيودها أمرٌ مستحيل، فقد خرقها الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليهم ليثبتوا للناس أن ليس لهذه النواميس ثبات الألوهية وهيمنة الربوبية التي لا تقهر، وأنها

(١) الكلمات ٢٤٣.

ليست خالقةً بل مخلوقة، وليست مُوْجِدَةً بل مُوجَدَة، وأنها بيد خالقها يقلبها كيف يشاء ومتى يشاء وبأيدي مَن من يشاء من عباده، وذلك يصبح للمعجزة وظيفة جديدة أخرى الى جانب وظائفها المعروفة، وهذه الوظيفة إذا ما تناولها قلم أديب مبدع فأنه قادر أن يستولدها أدباً إيمانياً غاية في الجمال، كما فعل «النورسي» في قطعته النثرية «اليد الشريفة» التي يصف فيها معجزة يد النبي ﷺ وهي عقب الأعداء تارةً، وتارة ينبع الماء السلسبيل من بين أصابع كفها ليسقي الصحاب، وأخرى هي بلسم جراحات أصحابه في معارك الجهاد(٢).

ويرى «النورسي» أن الانتصار للحق لا محال، والعلوَ له لا جدال، وأن القوة التي يمجدها ويسبّح بحمدها الغربيون ليست مطلقة، لأن كل شئ يحمل نقيضه، فالقوة تحمل جرثومة ضعفها، وسيصيبها الضعف والوهن في زمن ما، كما أن الضعف ليس أبدياً فهو يحمل جرثومة قوته، وسيقوى ويشتد ساعده في زمن ما أيضاً، فلا ينبغي للأقوياء أن يفرحوا بقوتهم ويتطاولوا بها على الناس، ولا للضعفاء أن ييأسوا وينكفئوا ويفقدوا أملهم بأن يصبحوا من الأوقوياء في دورة من دورات الزمن، والحق سيعلو وتكون له الغلبة إذا أطاع الشريعة التكوينية والتزم بقوانينها ونواميسها، لأن طاعة الشريعة التكوينية والالتزام بقوانينها ونواميسها هي سبيل الحق الى القوة التي يفتقر اليها، والتي ستعينه على العلو والغلبة في ساحة صراعه مع الباطل، فباطل مسلح بالقوة يغلب حقاً أعزل منها(٣).

والتاريخ تتجاذبه قوتان تعملان على تحريكه وهما «المطلق» من جهة و «النسبي» من جهة اخرى. ومن ورائهما القدر الإلهي الذي يحيط بالنسبي

---

(٢) المكتوبات ١٨٧

(٣) الكلمات ٨٧١ «الحق يعلو»

والمطلق ويرسم لهما دائرة صراعهما مع مجريات الاحداث والوقائع، وقيام الدول والحضارات أو سقوطهما، فهذا الفهم الروحي للتأريخ يعين الاديب الذكي على رصد واقعة تاريخية معينة وتحويلها الى عمل أدبي يفعل في النفوس ما لم تفعله الواقعة نفسها أو فكرتها المجردة.

غير أنه لا يلزم من كون القدر يسهم بشكل أو بآخر في صنع التأريخ الاعتقاد بجبرية تاريخية لا حرية ولا أختيار للانسان الى جانبها، فهذا فهم سطحي للقدر بجانب الحقيقة، فطالب الحقيقة ينبغي أن يصغي الى النورسي وهو يخاطبه قائلاً:

« يا طالب الحقيقة!

إن الشريعة تنظر الى الماضي والى المصيبة غير نظرتها الى المستقبل والى المعصية...

إذ تنظر الى الماضي والى المصائب بنظر القدر الإلهي، فالقول هنا قول الجبرية..

أما المستقبل والمعاصي فتنظر اليهما بنظر التكليف الالهي، فالقول هنا قول المعتزلة..

وهكذا تتصالح الجبرية والمعتزلة...

ففي هذه المذاهب الباطلة تندرج حبة من حقيقة لها محلها الخاص بها، وينشأ الباطل من تعميمها»(٤).

فلكي لا يأسى الانسان على ما فاته، ولا يتألم للمآسي التي حلّتْ به في ماضي حياته، يلجأ الى بلسم القدر ليغسل نفسه من همومها وآلامها،

---

(٤) الكلمات ٨٥٢

ولكن حين يتلبس الحاضر، ويرنو الى المستقبل عليه أن يشحذ همة التكليف وحرية الاختيار، لكي لا يبرر أخطاءه وآثامه وينسبها الى القدر ظلماً واعتسافاً، لأن المسؤولية هي إكسير حياة الانسان الذاتية، ومن دونها يفقد ذاتيته، ويفقد المعنى من وجوده.

فهذا الفهم للقدر يعين المسرحي المسلم، ويرسم له صورة الحياة المسرحية التي يمكن لشخوص مسرحه أن يتحركوا في إطارها، ويمارسوا حياتهم التي يتقاسمها الماضي بذكرياته وتأثيراته ومكوناته النفسية، والحاضر بآلامه وآماله. والمستقبل بأحلامه وبريق أيامه.. وكذلك الروائي المسلم سيفيد من هذا الفهم للقدر، لأن المسرحي والروائي، كليهما يعالجان مسألة القدر من خلال شخوصهما وابطالهما.

ثم إنّ «أدب الأيمان» الذي وضع «النورسي» أسسه وخطوطه العريضة في رسالة «اللوامع»(٥)، يهتم بالمعاني الانسانية العالية، ويرصد قمم السمو التي بإمكان الانسان الارتفاع اليها. ويغري بالبطولة النفسية التي تتعالى على صغائر النفس وشهواتها الهابطة، ويرفض ركوعها أمام سلطان الفرج والمال والقوة والجاه، ويربأ هذا الأدب بنفسه عن الهبوط الى حيث يرتع الضعف الانساني والدور البشري في أشد أوهام الحياة، وأسوأ أكاذيب الطبيعة، فلا يدنس نفسه بهما كما يفعل أدب الغرب اليوم الذي لا يتنزه عن الخوض في أي مستنقع يَغْرَقُ الانسان فيه مهما كانت درجة قذارته وعفونته.

وكذلك فأن أدب الايمان الذي يدعو اليه «النورسي» ينبغي له أن يحل عقدة الخوف والضعف المستعصية في «لا شعور» الانسان المسلم. هذه

---

(٥) المنشورة ملحقة بمجموعة «الكلمات».

العقدة التي كونتها في «لا شعوره» عشرات السنين من التسلط والقهر الأجنبي التي عانت منه شعوب الاسلام على طول عالمها وعرضه، فهو أدب القوة النفسية الذي يرتب التكوين النفسي للمسلم من جديد، فيغسل ضعفه وخوفه ويحذره من أن الضعف والخوف لا يثيران في نفوس الآخرين عاطفة الرحمة والاشفاق، بل يحركان فيهم عرق الكبرياء والتفوق، ويحفزان فيهم شهية الانقضاض والافتراس، فيقول في احدى فقرات تلك الرسالة:

«أيها الخائف الضعيف..!

إن خوفك وضعفك يذهبان سدىً لا طائل وراءهما، بل يكونان عليك لا لك؛ لإنهما يشجعان الآخرين، ويثيران شهيتهم لافتراسك»(٦).

انه هنا يسجل واحداً من أقسى قوانين الغاب البشري ضراوة حين تغيب عنه انسانية الايمان، وتتحكم فيه وحشية الحيوان.

ورغم ما يحيق بالمسلمين وبشعوب كثيرة أخرى من ضعف وهوان إلاَّ أنه متفائل لا يعرف اليأس، ويريد من «أدب الايمان» أن يبث الأمل في النفوس، ويشعل في الضمائر والارواح لهب القوة والعزة والتطلع الى المستقبل بروح الثقة من أنه سيكون من نصيب الاسلام..

وهو يرى أن «آسيا» هذه القارّة الواهنة الضعيفة المكبلة، ستنهض منتفضة على نداء الاسلام، وستكسر قيودها، وتحطم أغلالها ثم تستسلم - كما يقول - بأرضها وسمائها وناسها - للاسلام، وأن يدي الاسلام الحانيتين الكريمتين ستحتضناها، وان يمينه سيعطيها الايمان، ويمنح الطمأنينة والسلام للأنام (٧).

---

(٦) الكلمات ٨٣٧

(٧) الكلمات ٨٦٢



obeikandl.com

وبعد هذا الذي عرضناه يصبح من أوجب واجبات «أدب الأيمان» - الى جانب بثه روح التفاؤل والأمل في الشعوب - أن يتصدى بقوة للأخطار التي تثير القلاقل والاضطرابات، وتهدد أمن المجتمعات وسلامها، وتنذرها بالهلاك والدمار.

فما لم يُرْفَعْ عن الشعوب الظلم الاقتصادي الناجم عن انحرافاتها عن عدالة الإسلام، فلا أمل لها في عيش الطمأنينة والسلام، ويجمل «النورسي» بأسطر قليلة أصل العلة وأساسها، ويترك المجال لمن يأتي بعده لكي يفصل المجمل، ويبني عليه، ثم يشرع في التصدي والمعالجة، يقول «النورسي»:

«إن معدن جميع الاضطرابات والقلاقل والفساد وأصلها، وأن محرك جميع أنواع السيئات، والأخلاق الدنيئة ومنبعها كلمتان اثنتان او جملتان فقط:

**الكلمة الأولى**: إذا شبعتُ أنا فلا أبالي إن مات غيري من الجوع.

**الكلمة الثانية**: تحمل أنت المشاق لأجل راحتي.. اعمل أنت لآكل أنا.. لك المشقة وعليَّ الأكل.

والدواء الشافي الذي يستأصل شأفة السم القاتل في الكلمة الأولى هو الزكاة، التي هي ركن من أركان الاسلام.

والذي يجتث عرق شجرة الزقوم المندرجة في الكلمة الثانية هو: تحريم الربا.. فإن كانت البشرية تريد صلاحاً وحياةً كريمة فعليها فرض الزكاة، ورفع الربا»(٨).

---

(٨) الكلمات ٨٥١



obeikandi.com

ويحسن أن أنبه هنا الى أن «النورسي» لا يهتم بتجميل إطار الصورة الأدبية التي ينشؤها كاهتمامه بالصورة نفسها، فغايته الفكرة دون اللفظ، وهو لا يلقي بالاً الى ضعف العبارة وركة سبكها التي يودعها أفكاره فلا يتكلف للعبارة شيئاً من التجميل والتزويق وحسن اللفظة والكلمة لتحسن في نظر القارئ. بل هو عفوي شديد العفوية، وتلقائي لا يرى في الألفاظ اكثر من كونها مطايا الأفكار، فاذا عظمت الفكرة وجَمُلَتْ فلا عليها أن يحملها أي لفظ وأية كلمة ما دامت قادرة على توصيل ما تحمله الى القارئ، فهو إذن أديب أفكار وليس أديب الفاظ. وقد أشار الى ذلك في مستهل «اللوامع» ليأخذ القارئ حذره فينعم النظر بعظمة الفكرة لا بجزالة العبارة، لأن الأفكار هي قصده وغايته في هذه الرسالة وفي كل رسالة من رسائله.

كما أنه ليس شاعراً، أي لم ينظم شعراً، غير أننا نلمس حساً شاعرياً يشيع في أقواله وكلماته يفصح عن طاقة أدبية وشاعرية تنطوي عليها نفسه.

فتحتوي كل فقرة من فقرات هذه الرسالة «اللوامع» ـ مهما قلّت سطورها ـ على فكرة معينة، وكل فكرة بمفردها يمكن أن تلهم القارئ موضوعاً وجدانياً قادراً على تحريك الأفكار والمشاعر وشحنها بخزين من الطاقات الإيمانية التي تمده بلوامع النور والضياء في دياجي الفتن الظلماء إذا ما اكتنفت المؤمن وأحاطت به من كل جانب، فيمضي في طريقه على بصيرة من أمره لا ينحرف يميناً أو شمالاً عن صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم اللّه غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وتجدر الاشارة هنا الى أنني لم استعرض الا بعضاً من مواضيع «اللوامع»، وتركت للقارئ الكريم الوقوف على بقية مواضيعها واكتشاف

ما فيها من جواهر الأدب والحكمة بنفسه، ولا سيما تلك المقارنة الغريبة التي أنشأها «النورسي» بين أدب القرآن وأدب الغرب في معرض بيانه لإعجاز القرآن، وقد اضطررت أحياناً للاستعانة ببعض مقطوعاته في رسائل اخرى كي أعطي القارئ فكرة أشمل عن أبعاد النورسي الأدبية والوانها واختلاف موضوعاتها.. والمؤمل أن يحظى القارئ من خلال سطور الرسائل بشئ جميل ومفيد من غذاء العقل والروح.. ومن الله العون والتوفيق.

* * *